المجلة الجزائرية للمخطوطات المجلد 16 / العـدد: 1 جوان 2020، ص 23– 43

قراءة في التراث المَدْجَنِي الأصيل

مخطوط (مفتاح الدين والمجادلة) للأسير محمد القيسي نموذجا

A reading in the authentic Mudejar heritage Manuscript (Miftah al-Din and Majdala) of prisoner Muhammad al-Qaisi as a model

حمزة العايش*

جامعة الجزائر2 (الجزائر)، hamzalaiche@yahoo.com

تاريخ الإرسال: 2019/12/05، تاريخ القبول 2019/12/23، تاريخ النشر 2020/10/10

ملخص:

سوف أتحدث عن نموذج من التراث المَدْجَنِي الأصيل الذي خلفه المدَجَّنون وهم المسلمون الذين بقوا في المناطق المسيحية التي استولى عليها الصليبيون خلال الحروب الصليبية، أو من وفدوا إلى تلك المناطق واستقروا بها باعتبارهم أسرى حرب، وإما بصفتهم مهاجرين وفدوا من جنوب شبه الجزيرة الإيبيرية، بسبب الحروب والاضطرابات السياسية العميقة هناك. وأعني بالنموذج الأصلي هنا كتاب مفتاح الدين والمجادلة للمدجَّن الأسير محمد القيسي (كان حيا سنة 709هـ) وهو كتاب في المناظرة صنفه مؤلفه بعد خروجه. لم يبق من الكتاب إلا نسختان؛ الأولى محفوظة في المكتبة الوطنية الجزائرية بالجزائر العاصمة في مصلحة المخطوطات والمؤلفات النادرة، تحت رقم: (MSS1557)، أما الثانية فهي محفوظة اليوم في المكتبة الوطنية بمدريد تحت رقم(MMS 4944).

الكلمات المفتاحية: قراءة، مخطوط، التراث، المدجنين، الأندلس.

*المؤلف المرسل

Abstract:

I will speak of a model of the authentic Mudejar heritage left by the domesticated, which are the Muslims who remained in the Christian areas captured by the Crusaders during the Crusades, or those who came to these areas and settled there, or as prisoners of war, or as immigrants from the south of the Iberian Peninsula, because of the wars. And deep political unrest there. By the original model here I mean the book Miftah al-Din by the muddy captive Muhammad al-Qaisi (he was alive in 709 AH), which is a book on debate that its author compiled after his release. . There are only two copies of the book left. The first is kept at the Algerian National Library of Algiers in the Department of Manuscripts and Rare Books, under number: (1557MSS), and the second is kept today at the National Library of Madrid under number (MMS 4944) ..

Keywords: Reading, Manuscript, Heritage, Mudéjar, Andalusia

1–المقدمة

الحمد لله الذي علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم، أحمده حمد الشاكرين، وأثني عليه بما هو أهله، والصلاة والسلام على سيدنا وقدوتنا معلم الناس الخير، وعلى آله وصحبه، وكل من دعا بدعوته واقتفى أثره إلى يوم الدين، وبعد:

بعد سقوط قواعد ومدن المسلمين في الأندلس على يد الممالك النصرانية، إثر الحروب الصليبية أو كما يطلق عليها المسيحيون تسمية حروب الاسترداد (بالإسبانية ريكونكويستا Reconquista)[1] كان يَهرع إلى الثغور الجنوبية كثير من الأسر المسلمة الكريمة، التي آثرت الهجرة إلى أرض الإسلام على التَّدَجُّن والبقاء تحت سلطان النصارى، وذلك استبقاء لحرياتهم ودينهم وكرامتهم، على أنه بقيت في القواعد والثغور التي استولى عليها النصارى جموع كبيرة من المسلمين، الذين حملتهم ظروف الأسرة ودواعي

[1] امتدت هذه الحروب إلى ما يقارب 800 عام، استطاعت فيها الممالك النصرانية السيطرة على كامل شبه الجزيرة الأيبيرية وانتزاعها من المسلمين. ابتدأت بمعركة كوڤادونجا (Cuadonga) (أو مغارة دونجا) سنة 711م وتنتهي في 1492م تاريخ سقوط مملكة غرناطة، آخر الممالك الإسلامية.

العيش على البقاء في الوطن القديم، تحت حكم الإسبان سادتهم الجدد، وكان الأغلب ممن لم يهاجروا من الفقراء والضعفاء. فعدم قدرتهم على الرحيل والهجرة جعلتهم عرضة لإغراءات نبلاء الإسبان، فخدموا في الضياع والقصور، وأولئك هم المُدَجنَّون (بالإسبانية موديخاريس Mudejares) أو أهل الدَّجَن. وقد شاع استعمال هذا اللفظ بالأندلس منذ حوالي القرن السابع الهجري الثالث عشر الميلادي.[2]

إذا رجعنا إلى معاجم اللغة العربية نجد أنها تتفق على معنى واحد لكلمة (دَجَنَ) وهو الإقامة بالمكان ولزومه. وعليه يكون معنى المدَجَّنِين المقيمين. جاء في لسان العرب: دَجَنَ بالمكان يَدْجُن دُجُونًا ، أقام به وألفه...وَدَجَن في بيته إذا ألفه، ودَجَنَت الناقة والشاة تدْجُنُ دُجُونًا لزِمت البيوت.[3] وفي القاموس المحيط: دَجَنَ بالمكان دُجُونًا، أَقَام.[4] لكن المستشرقين الذين لديهم اهتمام بتاريخ المدجَّنين، يفسرون كلمة مُدَجَّن بالمخضوع أو المُطَوَّع،[5] ويرجعون هذا التفسير إلى اللغة العربية. ولا ندري أي المصادر العربية قدمت هذا المعنى للفظة مُدَجَّن، وإن كان المدجَّنون حقيقة كانوا خاضعين لسلطان النصارى بعد أن كانوا رعايا للحكام المسلمين.

إذن، وإن كان هناك اختلاف حول المعنى اللغوي لكلمة (مُدَجَّن)، إلا أن هناك اتفاق على أن المدجَّنين، هم المسلمون الذين بقوا في المناطق المسيحية التي استولى المسيحيون عليها، أو ممن وفدوا إلى مناطق مسيحية واستقروا بها إما باعتبارهم أسرى حرب، وإما بصفتهم مهاجرين وفدوا من جنوب شبه الجزيرة، بسبب الاضطرابات السياسية العميقة هناك، أو هرباً من ويلات الحروب الأهلية، أو نتيجة للظروف الاقتصادية القاسية.[6] وقد شكَّل المدجَّنون مجتمعات مغلقة حاولت الحفاظ على موروثها الاجتماعي والديني وسعت بكل ما أوتيت من قوة للحفاظ على كيانها المستقل الذي يمنع انصهارها في

---

[2] محمد عنان، دولة الإسلام في الأندلس (العصر الرابع) 56. بتصرف.

[3] ابن منظور، لسان العرب 1331/2.

[4] الفيروزبادي، قاموس المحيط: 1195.

[5] see : L.P. Harvey, Islamic Spain 1250-1500. Chicago 1990. and G.A. Wiergers, Islamic literature in Spanish and Aljamiado. Yça of Segovia (fl. 1450), his antecedents and successors. Leiden 1944.

[6] مرثيديس غارثيا، شتات أهل الأندلس، 72.

المجتمعات المجاورة لها. إلى درجة اختراع لغة جديدة سرية وهي اللغة العَجَمِيَّة أو الخِمْيَادو(Aljamiado) [7] تعامل بها المدجَّنون في الحياة اليومية إلى جانب اتخاذها لغة للكتابة.

وقد كانت أغلب مؤلفات المدجَّنين عبارة عن شروحات لكتب الفقه والتفسير وعلوم القرآن والسيرة النبوية... ولم تكن لهم مؤلفات أصيلة إلا في القليل النادر، ومما وصلنا من ذلك القليل كتاب (كتاب مفتاح الدين والمجادلة بين النصارى والمسلمين من قول الأنبياء والمرسلين والعلماء الراشدين) للمدجن الأسير محمد القيسي (كان حيا سنة 709هـ) وهو كتاب في المناظرة والجدال صنفه مؤلفه بعد خروجه من السجن واستقراره بين إخوانه من المدجَّنين.

في هذا المقال أتحدث عن هذا النموذج من التراث المَدْجَنِي الأصيل الذي لم يصلنا منه إلا نسختين؛ الأولى محفوظة في المكتبة الوطنية الجزائرية بالجزائر العاصمة في مصلحة المخطوطات والمؤلفات النادرة، تحت رقم: (MSS1557) ضمن مجموع، أما الثانية فهي المكتوبة باللغة العَجَمِيَّة الخِمْيَادو[8] وهي محفوظة اليوم في المكتبة الوطنية بمدريد تحت رقم(MMS 4944). سوف أبدأ الترجمة للأسير المُدجَّن محمد القيسي، وظروف أسره ثم حياته بين المدجَّنين، ثم سأقوم بالتعريف بعمله الذي قدمه وقوفا عند رغبة إخوانه. وأهمية هذا العمل كنتاج أصيل.

2: ترجمة الأسير محمد القيسي.

اسمه ونسبه: إن كتاب (مفتاح الدين) هو لمؤلف شبه مجهول؛ إذ لا نعرف عن مؤلفه (محمد القيسي) إلا القليل مما ذكره عن نفسه في ثنايا كتابه، سواء وهو يحدثنا عن أسره من طرف الروم وما لاقاه من عذاب وهوان في السجن، أو ما جاء إشارة عابرة إلى اسمه ونسبته. ولولا تلك الإيماضات التي تضمنها الكتاب كمصدر أول لترجمته لجهلنا قدرا كبيرا من المعلومات عن حياته. أما المصدر الثاني الذي يكشف

[7] الأعجمية أو الخميادو: وهي اللغة التي استعان بها المسلمون في الأندلس للتستر على أحوالهم، وممارسة شعائر الإسلام والتفقه في الدين بنوع من الحرية بعد أن اجتاحت الجيوش الإسبانية الممالك الإسلامية في الأندلس واستولوا عليها.

[8] Van Koningsveld and G. A. Weigers, The Polemical Works of Muhammad Al Qaysi, P183.

جانبا من هوية القيسي، فهو النسخة المترجمة إلى اللغة العجمية أو الخِمْيَادُو السرية، والتي قام بدراستها المستشرق الهولندي فان كونينكسفلد ورئيس معهد ليدن لدراسة الأديان .

يعتقد فان (Van) أن أعمال محمد القيسي قد لقيت رواجا كبيرا وسط المدجَّنين في القرنين الرابع عشر والخامس عشر؛ لأنها كانت توزع في شكل نسخة الخِمْيَادُو والتي بقيت معروفة بأنها مأخوذة من كتاب (مفتاح الدين) ، غير أن هارفي كان أول من لفت الانتباه إلى المخطوطة الجزائرية المحفوظة في المكتبة الوطنية الجزائرية تحت رقم (MMS1557)، وذلك بمقارنة المعلومات الموجودة فيها عن عبد الله الأسير(Abd Allah El Cativo)[9] بالمعلومات الموجودة عن نفس الشخص في مخطوطة الخِمْيَادو لكتاب (مفتاح الدين).[10]

لم يرد اسم المؤلف مقترنا بعنوان النسخة العربية كما هو معهود في المخطوطات العربية، وإنما جاء ذكره عرضًا في كلام الزعيم النصراني الذي كان يناظر في حضرته؛ فبعد أن تردد القيسي واعتذر عن مناظرة الراهب الذي قُدِّم بين يديه، خوفا من أن يسلط عليه الزعيم الكافر رجلاً ظالما لا يرحمه فيوبخه ويُخْزِيه على حد تعبير المؤلف، خاطبه الزعيم مطمئنًا: "يا **محمد**، اسمع ما أقول لك، تكلم وانصر دينك، وقيد ألفاظك، ورُدَّ جوابك".[11] فهذا الموضع هو الوحيد الذي ذكر فيه اسم المؤلف صراحة.

بعودتنا إلى آراء المستشرقين المهتمين بشخصية محمد القيسي وبكتابه (مفتاح الدين)، نجد المستشرق والقس الكاثوليكي الإسباني ميغيل آسين بلاثيوس (Miguel Asin Palacios)

---

[9] هو أحد المسلمين الأسارى، قدم إلى شمال إسبانيا وجنوب فرنسا كأسير حرب، تماما كما حدث للقيسي. الدلائل تشير إلى أن عبد الله الأسير كان يعيش في شمال إسبانيا في النصف الثاني من القرن الثالث عشر، لقد كان من المستوطنين المسلمين الذي استوطنوا مدينة فيلاستار، وذلك حسب وثيقة مؤرخة في 15 جويلية 1267م.
(Van Koningsveld and G. A. Weigers, The Polemical Works of Muhammad Al Qaysi, P193.)

[10] نسخة الخِمْيَادو مفتاح الدين تختلف مع النسخة الجزائرية في عدة مواضع، تحدث عنها فان كونينكسفلد بالتفصيل (في المقال السابق) بسبب ضياع أجزاء منها، كما أن مترجم نسخة الخِمْيَادو والذي يدعى علي غريب قد قام بإضافة مقاطع كالترجمة المقتضبة للمؤلف، كما حذف مقاطع أخرى طويلة مهمة؛ كالحديث عن الأحداث العسكرية التي وقعت في مملكة غرناطة، كما ترك قصيدة القيسي المخمَّسة التي تضمنت مشاعره وأحاسيسه.

[11] القيسي، مفتاح الدين، 19و.

(1871-1949)م، في سنة 1909م قام بنشر نص عربي صغير لأحدهم يسمى (أبو القاسم محمد ابن سراج القيسي)![12] وقال:" هنا يبدأ كتاب الفقيه محمد القيسي، رجل ذو علم، تفقه في جامع الزيتونة في تونس، والذي أصبح أسيرا في لِيرِيدَا (Lérida)[13] والذي توفي هناك بعد ذلك، لقد كان حقا رجلا مضطلعا _ولا زال_ في جدالات مع المسيحيين...". لكن آسين كان يعتقد أن الرجل عاش نهاية القرن السادس عشر.[14]

إن النص الذي ذكره المستشرق آسين، هو في الحقيقة ترجمة مقتضبة للقيسي؛ والتي أوردها مترجم كتاب (مفتاح الدين) إلى لغة الخِمْيَادو في نسخة مدريد (MMS4944).[15] وهو العنصر الجديد الذي يميز نسخة مدريد عن نسخة المكتبة الوطنية في الجزائر؛ حيث جاءت خالية من أي إشارة إلى مكان تعلم محمد القيسي أو مرتبته العلمية، أو حتى مكان أسره ووفاته. في حين ذكرت نسخة مدريد أنه كان فقيها تونسيا تفقه في جامع الزيتونة، وأُسر في لِيريدا (Lérida) في إقليم كتالونيا (Cataluña) وتوفي فيها، وكان مناظرا بارعا.

إذن، ليس هناك دليل قوي على أن صاحب (مفتاح الدين)، هو الفقيه أبو القاسم محمد ابن سراج القيسي الذي هو الآخر في حكم المجهول. من جهة أخرى لم تتقبل المستشرقة دينيس كاردايلاك (Denise Cardaillac) التعريف الذي قدمه آسين. لقد اعتقدت بأننا في هذه الحالة نتعامل مع شخصين مختلفين باسم واحد وهو (القيسي)، الأول رمز قديم من رموز المدجَّنين، أما الثاني فهو كاتب لنص عربي اكتشف من قبل آسين، عاش هذا الكاتب في القرن السادس عشر وقد بعث كتاباته إلى

---

[12] لم أقف على ترجمته.

[13] لِيرِيدَا: لاَرِدَة، مدينة مشهورة بالأندلس، شرقي قرطبة، تتصل أعمالها بأعمال طرَّكونة، منحرفة عن قرطبة إلى ناحية الجرف. (الحموي، معجم البلدان، 7/5).

[14] Van Koningsveld and G. A. Weigers, The Polemical Works of Muhammad Al Qaysi, P. 185-186.

[15] Ibid, P. 185-186.

إسبانيا، كإجابة لسؤال طرحه عليه موريسكيون لا غير.[16] إن اجتهاد المستشرقين في الكشف عن هوية محمد القيسي الحقيقية، تبقى مجرد تخمينات لا تقوم على أدلة قاطعة، ويبقى المخرج الوحيد، هو الركون للترجمة القصيرة التي ذكرها مترجم نسخة الخِمْيَادو حول شخصية محمد القيسي.

أما عن نسبته (القَيْسِي) فقد أفصح عنها المؤلف في آخر قصيدته المخمَّسة على الأوزان القشتالية، حيث صور فيها غارة النصارى على مملكة غرناطة سنة (709)هـ، وما لحق بهم من الهزيمة النكراء على أيدي الجيوش الإسلامية في مدينة المَرِّيَة، وفي ختامها يشير المؤلف إلى نسبته (القَيْسِي)، متضرعا إلى الله تعالى أن يخرجه من بلاد الكفر[17].

القيسي طليق بين المدجَّنين:

قضى القيسي _بعد خروجه من السجن_ بقية حياته مدَجَّنا مع إخوانه الذين لم تسعفهم ظروف الحياة، إلى الالتحاق بمن هاجر إلى ما تبقى من البلاد الإسلامية في الجنوب الأندلسي، أو مغادرة شبه الجزيرة الأيبيرية إلى بلاد المغرب حيث الأمن والاستقرار. لقد خصص الإسبان الذين كانوا يستولون على القواعد والثغور الأندلسية، أحياء خاصة لإقامة المدجَّنين في كل مدينة مفتوحة، يفصل بينهم وبين أحياء النصارى صور ضخم، وكان هذا شأن اليهود أيضا؛ حيث كانوا يلزمون بالإقامة في حي خاص بهم.[18]

في عدة مواضع من كتاب (مفتاح الدين)، يشير القيسي إلى تلك الأحياء الخاصة التي كانت تجمع المدجَّنين، وتمنعهم من الاختلاط مع غيرهم من النصارى، ففي سياق الحديث عن دواعي تأليفه للكتاب، يشتكي المؤلف قلة المدارس والكتاتيب وحتى دور النساخة في حومته التي كان يقطن فيها، يقول:" فلم نجد في حَوْمتنا من ينقله عنَّا لبعد ديارنا وانقطاعنا عن أهل ملَّتنا، لا طالب يطلب ولا كاتب يكتب".[19] وفي موضع آخر يشير المؤلف صراحة إلى سكنه في الدَّجن أو الدَّجال كما جاءت مصحفة، يقول: " ثم إن الله

---

[16] Ibid, P 186 .

[17] القيسي، مفتاح الدين، 16ظ.

[18] محمد عنان، دولة الإسلام في الأندلس (العصر الرابع) ص57. بتصرف.

[19] القيسي، مفتاح الدين 17و.

بفضله لنا ابتلاني زادني العيَّال وسكَّنني الدَّجال ".[20] ثم يشتكي متضرعا إلى الله تعالى أن يخرجه من الدَّجن، ويعيده إلى بلاد المسلمين، يقول:" قد عَيِيت سُكنى الدَّجال، رب أخرجني في حال".[21]

لقد لبث المدجَّنون عصرا، يتمتعون في ظل ملوك قشتالة وأراغون، بنوع من الطمأنينة والرخاء والأمن[22]، فكان يسمح لهم بالاحتفاظ بدينهم وشريعتهم ومساجدهم ومدارسهم، وكان لهم في العصور الأولى قضاة منهم يحكمون في سائر المنازعات التي تقع فيما بينهم وفقا للشريعة الإسلامية.[23]

لكن هذا الحال أخذ في التبدل منذ اتسع نطاق الفتوحات النصرانية في أراضي الأندلس؛ ففي أوائل القرن الثالث عشر تتوالى أوامر البابوية وقراراتها ضد المدجنين، والحض على استرقاقهم أو تنصيرهم، وكان ملوك قشتالة وأراغون يعارضون هذه السياسة العنيفة، لبواعث وأسباب تتعلق بمصالحهم القومية ورخاء بلادهم، ذلك لأن المدجَّنين كانوا بين رعاياهم أفضل العناصر وأنشطها، وأكثرها مثابرة وأوفرها تأدية للضرائب، فكانوا يستأثرون بالتفوق في العلوم والفنون والمهن.[24]

إذا عدنا إلى نص المؤلف نجده يقدم لنا بعض الإشارات عن الظروف التي كان يعيشها المدجَّنون في ظل الممالك النصرانية، أواخر القرن السابع الهجري وبداية القرن الثامن. وفي المنطقة التي سكن فيها

---

[20] المصدر نفسه 18و

[21] المصدر نفسه 16ظ.

[22] كانت هناك أسباب دفعت الإسبان السماح للمسلمين بالبقاء في الممالك المسيحية، والتسامح معهم مؤقتا. وهذه بعضها:

_ وجود كيان قوي ممثل في مملكة غرناطة، جعل الإسبان يرجحون التمهل في مسألة الطرد والتنصير، حتى يتم التخلص من غرناطة خوفًا من تجييش جيوش غرناطة والمغرب.

_ الخوف من عدم ملء فراغ المسلمين في الحقول والأسواق، كما أن المدجنين أعلم الناس بالأرض وفلاحتها، ومنهم الحرفيين المهرة، فبعد سقوط قرطبة لم يجد القشتاليون سوى المدجنين ليتم تعيينهم في بعض المناصب داخل المدن، وتوليهم أمور العمارة والبناء والري.

_ محاولة الإبقاء على المدجنين والاهتمام بهم، سيجعلهم ينصهرون مع المجتمع المسيحي باستخدام وسائل شتى، كالمصاهرة بين المدجنين والقشتاليين في بعض المناطق لتتحلل النزعة العصبية للإسلام.

_ تلبية لمطالب نبلاء قشتالة وأرغون، ليس من باب الرفق والعطف وإنما حرصًا على مصالحهم وأعمالهم.

(ينظر: حسن يوسف، المسلمون المدجنون في الأندلس 13_15) بتصرف.

[23] محمد عنان، دولة الإسلام في الأندلس (العصر الرابع) 57_56.

[24] المرجع نفسه، 62_63. بتصرف.

بالذات؛ باعتبار أن أوضاع المدجَّنين كان تختلف بين منطقة وأخرى.[25] يبدو أن أوضاع المدجَّنين كانت تترنح بين المعاملة الحسنة والتسامح والقسوة والتشدد والتضييق أحيانا أخرى. وهذا ما نستشفه من النص الذي ساقه في سياق حديثه عن فرحة المدجَّنين، واستبشارهم بالانتصارات التي حققتها الجيوش الإسلامية على الجيوش النصرانية في مملكة غرناطة. يقول:

" فلما رأيتهم على هذا الحال وما حطَّ بهم من النَّكال، رفعت إلى الله يديَّ وخررت ساجدًا، وشكرت لله قائمًا وقاعدًا، وحمدت الله على ما به أنعم، ولو شاء منه عَصَم...أنا ومن اتبعني من المسلمين، فرحين لما نزل بهم من العذاب المهين. نؤذن بصلاتنا بعد خفائها، ونجهر بقراءتنا بعد سرِّنا، فلا ينكر علينا ذلك أحدٌ من الروم، وأقول يا ليت هذا يدوم، فكان من النصارى إذا سمعوا الآذان يقولوا: صدقت والحق فيما نطقت، فإنا قد رأينا لذلك برهانًا، وما نحن إلا عُبَّاد الأصنام لا تضر ولا تنفع، وما نعبد إلا طاغوتًا وبدعًا".[26]

فالقيسي في هذا المقطع يشير إلى حالة الانفراج؛ من خلال إعلان المدجَّنين بشعائرهم الدينية وبالصلاة وقراءة القرآن والجهر بالآذان دون خوف أو وجلٍ، بعد أن كانوا يتقون ذلك خوفا من بطش النصارى. أما بعد انتصار المسلمين فلم يبق للتستر أي داع، بل أكثر من ذلك فبعض النصارى كانوا ينصفون المدجَّنين، ويعتبرون انتصار المسلمين في معاركهم برهان على صدق دينهم، وفساد دين النصارى ومعتقداتهم. وقد كان لهذا الاعتراف وقع في نفوس المدجَّنين؛ حيث كان يطيب خاطرهم ويخفف عنهم ما كانوا يعيشونه من آلام وضغط جراء سياسات التضييق الممارسة ضدهم، خاصة من طرف الكنيسة المسيحية. يقول المؤلف: "...ولعمري لقد وافق قولهم (أي النصارى) مني قلبا معمورًا بالألم وجسمًا مكدودًا بالسِّقام، فشفى القلب حتى نسيت همِّي وبرَأَ جسمي حتى طلق سقمي".[27]

في هذا الصدد أشير إلى الضغوطات التي كان يعانيها المدجَّنون نتيجة الفتاوى المتشددة التي كانت تصدر من فقهاء مغاربة، تصل في بعض الأحيان إلى تكفيرهم ووصفهم بالمارقين لبقائهم تحت حكم

---

[25] ينظر: مرثيديس غارثيا، شتات أهل الأندلس، 72_73.

[26] القيسي، مفتاح الدين 16ظ_17و.

[27] القيسي، مفتاح الدين 17و.

النصارى رغم إكراههم. ولا شك أنه كانت لتلك الأحكام القاسية وقعها في نفوس المدجَّنين أيضا، وربما أسهمت في تخلي بعض منهم عن الإسلام واعتناق النصرانية. سوف أشير هنا إلى الفتوى التي أطلقها أبي العباس الونشريسي (914)هـ، في رسالته (أسنى المتاجر في بيان من غلب على وطنه النصارى ولم يهاجر)[28] حيث فصل فيها حكم إقامة المورسكيين بين ظهراني النصارى خاصة، وحُكم الإقامة في بلاد الكفار عامة. خلص فيها إلا عدم جواز هذه الإقامة، ووجوب مغادرتها إلى بلاد الإسلام، كما حكم فيها بعدم قبول شهادة أولئك المقيمين ولا خطابات قضاتهم.

بالمقابل صدرت فتاوى من فقهاء مسلمين، كانت سلوى لأولئك المضطهدين؛ حيث وصفوا فيها بكل صفات التقوى والجهاد والصبر وتحمل المكاره في سبيل الدين والأوطان. وكنموذج سوف أذكر هنا مقطعا من فتوى أصدرها مفتي وهران أحمد بن بوجمعة المغراوي (920)هـ إلى المورسكيين سنة 1504م. فبعد أن أثنى عليهم ثناء حسنا، بيَّن لهم رُخَصا وحيَّلا لإقامة شرائع الدين دون أن يشعر بهم النصارى، يقـول: " فالصلاة ولو بالإيماء، والزكاة ولو كأنها هدية لفقيركم أو رياء...والغسل من الجنابة ولو عوماً في البحور، وإن منعتكم فالصلاة قضاء بالليل لحق النهار...وإن أكرهوكم على كلمة الكفر فإن أمكنكم التوبة والإلغاز فافعلوا، وإلا فكونوا مطمئنين القلوب بالإيمان إن نطقتم بها ناكرين لذلك، وإن قالوا اشتموا محمداً، فإنهم يقولون له مُمَدْ، فاشتموا مُمَداً، ناوين أنه الشيطان أو مُمَد اليهود فكثير بهم اسمه، وإن قالوا عيسى توفى بالصلب، فانووا من التوفية والكمال والتشريف...ونحن نشهد لكم بين يدي الله أنكم صدقتم الله ورضيتم به، ولابد من جوابكم والسلام عليكم جميعاً.[29]

إن وضع المدجنين في الممالك المسيحية عموما لم يكن مريحا، ولذلك كانت رغبة الهجرة إلى بلاد الإسلام قائمة في نفوسهم، رغم استحالتها في بعض الأحيان، خاصة إذا ما تعلق الأمر بالأسارى منهم؛ حيث لا يمكن لهم الرجوع إلى أوطانهم إلا بفدية يدفعها ذويهم أو جماعـة من المسلمين. يقدم لنا نص

[28] ألف الونشريسي هذه الرسالة ردا على أسئلة أرسلها له فقيه يدعى أبو عبد الله ابن قطيَّة، يستفتيه في جماعة من الأندلسيين الذي هاجروا إلى بلاد المغرب ولم تعجبهم الإقامة هناك، فأبدوا ندمهم ورغبوا في العودة إلى الأندلس. ما حكم ذلك؟ وما يترتب عليه من الزواجر؟. (ينظر: الونشريسي، أسنى المتاجر 37).

[29] علي المنتصر الكتاني، انبعاث الاسلام في الأندلس 71-72.

المؤلف إيماءات عن ذلك الأمل العالق في نفوس المدجَّنين، ورغبتهم الجامحة في الالتحاق ببلاد الإسلام، يقول: " فقالوا لي جيراني وعشيرتي وأقراني: إن تركنا هذا البلد فَوَرِّخه لطول الأبد".[30]

وفاته: ليس في النسخة العربية لكتاب (مفتاح الدين) ما يشير إلى سنة أو مكان وفاة القيسي، إلا ما يمكن أن نستنتجه من أنه كان حيا سنة 709هـ الموافق لسنة 1310م؛ وهي السنة الذي ذكرها المؤلف في متن كتابه في سياق الحديث عن الغارة الصليبية التي شنتها الممالك الشمالية على مدينة المرية والجزيرة الخضراء. أما بخصوص مكان وفاته؛ تشير الترجمة المقتضبة للمؤلف والتي قدمها مترجم نسخة الخِمْيَادو، إلى أن القيسي توفي في مدينة لِيريدا (Lérida) التي كان أسيرا فيها. لكن المستشرق الهولندي فان كونينكسفلد يعتقد أن القيسي فعلاً عاد إلى مسقط رأسه في تونس في نهاية حياته، ونتيجة لكبره في السن فقد توفي هناك.[31] عليه رحمة الله.

3- التعريف بكتاب (مفتاح الدين والمجادلة).

أهمية كتاب مفتاح الدين والمجادلة.

كتاب (مفتاح الدين) هو نص مهم ووثيقة تاريخية فريدة من نوعها، ربما هذا ما يفسر اهتمام المستشرقين وبعض الباحثين العرب بهذا النص، والكم الهائل من البحوث والدراسات حول نصه وشخصية مؤلفه محمد القيسي الذي عاش بين القرنين السابع والثامن الهجريين. لقد تنوعت مواضيع الكتاب رغم أنه في الأساس صُنف في مجادلة النصارى والرد على شبههم حول الإسلام ودحض اعتقاداتهم في المسيح(عليه السلام). فوصف فيه مؤلفه إحدى الغارات الصليبية على مملكة غرناطة الإسلامية في 709هـ، وبالتحديد على مدينة المرية والجزيرة الخضراء، وتحدث عن سبب تلك الغارة ونتائجها على كلا الفريقين. إلى جانب ذلك أفرد صفحات للحديث عن حادثة أسره من قبل الروم ومعاناته في الأسر وبعد الأسر، وأنهى كتابه بمجادلة جرت بينه وبين راهب نصراني في حضرت زعيمه.

---

[30] القيسي، مفتاح الدين، 17و.

[31] P.S van Koningsveld and G.A Wiegers, The polemical works of Muhammad al-Qaysi, p191.

إن قيمة الكتاب الذي بين أيدينا ليس في المادة التي يعرضها ولا تنوع موضوعاته فحسب، وإنما تكمن قيمته الحقيقية في ذاته. فالكتاب قبل كل شيء هو **نتاج مَدْجَني أصيل**، خاصة إذا علمنا أن أغلب أعمال المدجَّنين المسلمين في إسبانيا هي عبارة عن ترجمات لكتب التراث العربي الإسلامي. وربما هذا ما يفسر تلقف المدجَّنين لهذا العمل الأصيل وإدراجه ضمن آدابهم، فاستنسخوه وترجموه إلى لغة الخِمْيَادو(Aljamiado) أو العَجَمِيَّة وهي اللغة التي استعان بها المسلمون في الأندلس للتستر على أحوالهم، وممارسة شعائر الإسلام والتفقه في الدين بنوع من الحرية بعد أن اجتاحت الجيوش الإسبانية الممالك الإسلامية في الأندلس واستولوا عليها.

وإلى جانب ذلك، يقدم لنا الكتاب صورة عن جوانب من حياة المدجَّنين؛ تلك الأقلية المسلمة التي اضطرتها ظروف الحياة للعيش في ظل الممالك النصرانية. وفق نمط اجتماعي خاص، حيث أفصح الكتاب عن جوانب من حياتهم ومعاناتهم وآمالهم. وإن كان ذلك غير مقصود من مؤلفه إلا أن إشاراته كانت كافية لفهم جوانب من واقع تلك الجماعة.

إلى جانب هذه القيمة العامة للكتاب، هناك مجموعة من النقاط التي تزيد من أهميته، وتجعل الاهتمام به بدراسته وتحقيقه وإخراجه للمتخصصين والباحثين أمراً محتوما، نذكر منها:

- قدم لنا النص صورة عن أدب المناظرة والجدال في القرون الوسطى المسيحية، وبالتحديد في مطلع القرن الرابع عشر الميلادي، وذلك من خلال تجربة محمد القيسي الذاتية في جدال أحد الرهبان برعاية زعيم نصراني. كما قدم لنا صورة عن المواضيع والقضايا التي كانت تثار في مثل تلك المجالس، وكيف كانت تُدار وفق قواعد وأخلاقيات محددة، يلتزم بها المجادل أحيانا ويتملص منها أحيانا أخرى. إن المخطوطات التي وصلتنا من هذا الأدب الأصيل الخاص بالمدجَّنين قليلة للغاية، إذا ما قورنت بما صُنِّف في هذا الفن من قبل العلماء المسلمين خارج جماعة المدجَّنين، وهو قليل أيضا إذا ما قورن بترجمات ومصنفات المدجَّنين[32]

[32] إن أغلب مخطوطات المدجَّنين في إسبانيا، عبارة عن كتب تعليمية لتعليم مبادئ الإسلام وبعض التخصصات الأخرى (تفسير، تلاوات قرآنية، علم الحديث، قواعد اللغة، خطب، نصوص فقهية، أدب تعبدي، معايير الزهد والأخلاق، ابتهالات، نبوءات، سير ذاتية وأسفار، حكايا أخلاقية، قصص أخروية، شعر ديني...)، وكقاعدة عامة لا تحتوي تلك المخطوطات _في الغالب_ على نصوص أصيلة مكتوبة من قبل مدجنين.

في الفقه وعلوم القرآن والسير...إلخ. هذا إذا لم نعتبر أن مؤلفات المدجَّنين في حد ذاتها _بغض النظر عن موضوعاتها وفنونها_ هي مجادلات ضد النصارى وتحدٍّ للحفاظ على الدين الإسلامي واللغة التي كُتب بها.

• زودنا محمد القسي ببعض المعلومات النادرة، والتي كانت متداولة في عصره عن جماعة الإفْرَارِيِّين أو فرسان المعبد (Temple Knights)، ونشاط هذه الفرقة في القرون الوسطى، وبعض معتقداتها السرية، وجلسات الاستدراج التي كانت تديرها في أوساط النصارى؛ لثنيهم عن دينهم وإدخالهم إلى الإسلام!. ثم اكتشاف أمرها واضطهادها من قبل ملك فرنسا فيليب الرابع. والحقيقة أن ما ورد بخصوص هذه الجماعة بحاجة إلى بحث معمق لكشف حقيقة ما كان يشاع عنها، ولإماطة اللثام عن تاريخها ومعتقداتها الحقيقية.

• القيسي شاهد عيان يقدم لنا شهادته الحية عن أحداث تاريخية مهمة في التاريخين الأوربي والإسلامي الأندلسي؛ إذ كان معاصرا لعمليتي الاضطهاد والإبادة التي تعرض لها جماعة فرسان المعبد بداية سنة 1306م، والمعلومات حول هذه الجماعة المسيحية قليلة للغاية خاصة أن نشاطاتها واجتماعاتها وأهدافها كانت محاطة بسرية تامة. وحادثة طرد اليهود من فرنسا ومصادرة ممتلكاتهم في العام نفسه على يد ملك فرنسا فيليب الرابع. كذلك يقدم لنا شهادته على الحملة الصليبية التي استهدفت مدينة المَرِّيَة والجزيرة الخضراء في مملكة غرناطة الإسلامية في سنة 1310م، ويصف لنا مشاهد حية كانت تجري أمام عينيه من بداية الحملة الصليبية إلى نهايتها.

• يقدم لنا نص مفتاح الدين نموذجا عن الجدال والحوار الإسلامي المسيحي في إسبانيا في القرنين الثالث عشر والرابع عشر، وأهم المسائل العقائدية واللاهوتية التي كانت محل المناظرة في تلك الحقبة، كما يبرز لنا بعضا من قواعد المناظرة وأساليبها وأخلاقياتها في ذلك العصر، الأمر الآخر الذي لا يقل أهمية أن كتاب مفتاح الدين يحفظ لنا نصا جدليا لمُناظِر كان أسيرا في يد الفرنسيين في القرن الثالث عشر (1267م)، وهو المعروف بعبد الله الأسير، الذي يُعتقد أنه كان أسيرا في مدينة مُونْبِلييه (Montpellier) الفرنسية،

.)161p (Van Koningsveld and Weigers, The Polemical Works of Muhammad Al Qaysi,

واستوطن في مدينة فِيلاَسْتَار (villastar) الإسبانية في مملكة أراغون.[33] حيث وظف المؤلف ثلاث صفحات من عمل سلفه للرد على أسئلة الراهب النصراني. باعتبارها وُجِّهت لعبد الله الأسير من قبل وأجاب عنها. كما حفظ لنا كتاب (مفتاح الدين) مقطعا من المجلد الخامس من كتاب (الرِّدَّة والفتوح) لسيف الدين بن عمر التَّمِيمي(180)هـ، تحدث فيه مؤلفه عن اضطهاد بولس للنصارى ثم تحوله بعد ذلك إلى النصرانية لتحريف عقيدتها من الداخل بدلا من اضطهاد معتنقيها. وقد استفاد من هذا المقطع محقق كتاب الردة والفتوح الدكتور قاسم السامرائي بعد أن دله عليه المستشرق فان كونينكسفلد.[34]

يضاف إلى ما سبق يقدم لنا نص القيسي صورة عن ظاهرة من أهم الظواهر التي شكلها الصراع والتنافس بين الإسلام والنصرانية في العصر الوسيط ومطلع الحديث من تاريخ البحر الأبيض المتوسط، وهي ظاهرة الأسر[35]. فمن المعروف أن المبتلين بهذه الظاهرة من أهل هاتين الملَّتين، قد صنفوا فيها آدابا متعددة للتعبير عنها، ولمواكبة مختلف الإشكالات الإنسانية والدينية والسياسية والاقتصادية التي كانت تترتب عنها. والقيسي من القلة الذين أبدعوا نصوصا حققت أدبيتها بامتياز في عصرها[36]، واستطاعت بشكل من الأشكال إنتاج أدب للأسر يماثل ما خلفه النصارى في هذا المضمار حيث أبدعوا فيه إبداعا مرموقا.

موضوع كتاب (مفتاح الدين والمجادلة).

ابتدأ محمد القيسي كتابه (مفتاح الدين) بما يُبتدأ به عادة في كتب المناظرات والردود، وهو موضوع البشارات، وإثبات نبوة محمد صلعم من كتب الأنبياء والعهد القديم؛ القضية المركزية في المناظرة الإسلامية النصرانية لاختلاف المعتقدَيْن الإسلامي والنصراني في هذه المسألة، وما يترتب عنها من تصورات للإله، والنبوَّة والكتب المقدسة...إلخ، فهي تشكل الخلاف الدائم والأبدي بين الديانتين.

---

[33] يؤكد ذلك وثيقة مؤرخة في 15 جويلية 1267.
(Van Koningsveld and Weigers, The Polemical Works of Muhammad Al Qaysi, p193.)

[34] ينظر: مقدمة المحقق (قاسم السامرائي)، الردة والفتوح لسيف بن عمر التميمي 25.

[35] للاستزادة ينظر: مقال ((الأسر في رحلة مغربية موريسكية لمجهول من القرن الهجري التاسع)، للدكتورة فريدة بنعزوز، جامعة عبد المالك السعدي، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، تطوان، 2009م.

[36] أشير هنا إلى كتاب (سبك المقال في فك العقال) لعبد الواحد محمد بن الطواح التونسي (القرن 8هـ). وهو من الجهود المهمة في هذا التراث، كذلك كتاب (رسالة السائل والمجيب وروضة نزهة الأديب) لمحمد الأنصاري الأندلسي(القرن 9هـ).

ولقد رجع القيسي لعرض دعواه إلى التوراة والإنجيل، فقدم ما جاء بهما بخصوص نبيه. وأوَّل عباراتهما التي تسمح له بالدفاع عن دعواه، وبالاعتراض على دعوى النصارى في شأن علاقة ناسوتيَّة المسيح بألوهيته؛ ففي القسم الأول من كتابه، وقف عند ذكر إشعيا والزبور والإنجيل لرسول الإسلام، قبل أن يشرع في وضع تاريخٍ للنصرانية ضمن رؤية إسلامية صرفة لهذا المعتقد. فبيَّن كيف غرر بولس اليهودي بمختلف شيع النصارى، ما عدا شيعة المؤمن التي قاتلها إلى أن تفرقت في الأرض، وكيف حرَّف لهم دينهم وأعدهم لمتابعة هذا التحريف.[37]

لقد رام المؤلف من هذا التأريخ لهذا الدين، تيسير إمكان الاعتراض على دعوى النصارى بشأن ألوهية عيسى. وبلور اعتراضه على هذه الدعوى ذاتها بالرجوع إلى الأناجيل المختلفة والاستناد عليها؛ فاختلافها دليل عنده على ضياع تواتر النصرانيَّة وانقطاع سندها، مما أدى إلى ضرورة مجيء الإسلام لتتميم الرسالة السماوية وإقفالها، ناهيك عن أنه لا يوجد في هذه الأناجيل على تعددها واختلافها ما يسمح باستنتاج عقيدة النصارى في المسيح، تلك العقيدة المتعددة والمختلفة في حد ذاتها. فاعتقادهم بأن المسيح ابن الله لم يرد لا بالتصريح ولا بالتضمين في أي إنجيل، ولم يرد كذلك اعتقادهم بأن الله هو المسيح وأنه ثالث ثلاثة، فالمسيح كان ينادي ربه وربه كان يناديه، كما كان يتضرع إلى الله ويدعوه ويرفع يده إلى السماء، ويحيي بإذنه الموتى، فكيف اعتقد النصارى في عيسى ما اعتقدوه؟![38]

لقد اعتمد النصارى منهج القياس عندما حاولوا مماثلة المسيح بالله بالرغم من اختلافهما بوصفهما محدثاً وحادثاً، وانتهوا بقياسهم الفاسد إلى عقيدة التثليث، في الوقت الذي وجب عليهم التوقف مثلما توقف المسلمون، فلا يسألون عن كيفية حدوثه هكذا اعترض القيسي على مضمون دعوة النصارى وعلى منهج تحصيلهم للمضمون نفسه. لذلك اتجه إلى إبطال دليل المدعين (النصارى) بما يسمى في لغة أهل المناظرة بالنقض أو المنع المدلل. فمن جهة، لا يستلزم من أدلة النصارى تصورهم للرب وللمسيح؛ ومن جهة ثانية، فإن المنهج الذي اتبعوه لتحصيل دعواهم (القياس) لا يجوز استخدامه في هذا الصدد، لعدم تساوي قطبي القياس ولاختلافهما. ثم إن هذا المنهج يُحايثه بالضرورة الشك والظن، بينما يقتضي تحصيل العقيدة بناءها على القطع

[37] محمد عبد الواحد العسري، قواعد المناظرة وأخلاقياتها من خلال مجادلة محمد القيسي ومحمد الأنصاري 333_334.
[38] المرجع نفسه 333_334.

واليقين، وبذلك أبطل حجية القياس في هذا المضمار جرياً على عادة المتكلمين في الغرب الإسلامي الوسيط وسيستمر محمد القيسي، لبلورة دعواه الخاصة في الله وصفاته المعارضة لدعوى النصارى في هذا الصدد، بعض أدلة علم الكلام الإسلامي، من مثل دليل الخلق ودليل نفي التحيز ودليل نفي الشبه.[39]

تحول منظمة فرسان المعبد إلى الاسلام واضطهادهم من قبل النصارى:

منظمة فرسان المعبد (Temple Knights)، هي جماعات دينية محاربة لها أهميتها في التاريخ المسيحي عموما وفي تاريخ الحروب الصليبية بصفة الخصوص.[40] وقد ذُكرت هذه الجماعة في كتب التاريخ بعدة أسماء؛ منها (فرسان الهيكل) أو كما أسماها المؤلف بـ(الإفْرَارِيِّين) (Frères) وترجمتها بالفرنسية (الإخوة)، كما أسماها (التَّنْبَلة) (بالفرنسية Templiers) وتعني (الفرسان)،[1] والمعروف أن جماعات الفرسان الدينية قد قامت في المشرق في ظل الصليبيين، واشتهر فيهم بالأخص فرسان المعبد (الدَّاوِيَّة) كما تسميهم _أيضا_ الرواية العربية، وفرسان القديس يوحنا أو الأُسْبِتَارِية (بالفرنسية Hospitalier) أو (الأُشْبِطَال) كما أسماهم المؤلف، وكانت هذه الجماعات المحاربة تشد من أزر الأمراء النصارى وتؤدي للصليبيين أثناء الحرب والسلم خدمات جليلة، أُنشئت جماعة فرسان المعبد في بيت المقدس سنة 1119م عقب قيام المملكة اللاتينية بقليل.[41]

أشار القيسي إلى الثراء الذي بلغته جماعة فرسان المعبد من خلال امتلاكها للمال الكثير وللأراضي والحصون، وهي حقيقة تاريخية؛ فبالرغم من صفتهم الدينية والصليبية كانت تحدوهم بواعث وأطماع دنيوية، وكان ظمأ الكسب واجتناء المغانم روحهم المسيرة، وكانوا يسيطرون على قلاع كثيرة وأراضٍ واسعةٍ، ويعيشون في بذخٍ وترفٍ، بما يحصِّلون من الإقطاعات والهبات والنذور الوفيرة، وكان تدخلهم في شئون السياسة والعرش يشتد أحيانا، ويفضي إلى أحداث وتطورات خطيرة.[42]

---

[39] المرجع نفسه 333_334.

[40] تجمع الكلمتان لتكون اسما عرف به فرسان المعبد وهو الإخوة الفرسان (Frères templiers).

[41] للتعرف على تاريخ فرسان المعبد ينظر: مايكل بيجنت وريتشارد لي، فرسان الهيكل والمحفل الماسوني، ترجمة محمد الواكد، كذلك يراجع: كتاب بهاء الأمير، اليهود والحركات السرية في الحروب الصليبية.

[42] محمد عنان، دولة الإسلام في الأندلس (العصر الرابع) 78. بتصرف.

الأمر المهم الذي يحتاج إلى بحث وتدقيق هو عقيدة هؤلاء الفرسان؛ حيث نقل المؤلف زعمهم أنهم على التوحيد الخالص، وأن ما جاء به عيسى هو الحق، وأنه رسول الله، وأن ما عليه النصارى كله بدعة. وفي هذا السياق ينقل لنا القيسي إحدى الاجتماعات السرية لفرسان المعبد وهم يحاولون استدراج من وقع بين أيديهم من النصارى إلى معقدهم؛ فإن آمن بمثل إيمانهم حزَّموه وأكرموه وأعانوه، وإن لم يؤمن بإيمانهم هددوه. وكان هذا فعلهم مدة ثلاث مائة سنة.[43]

بعدها يذكر المؤلف _باختصار_ ما جاء في الرسالة التي بعث بها كبير فرسان المعبد وهو جاك دي موليه (Jacques de Molay)[44] إلى البابا الكاثوليكي، بعد أن جادل من كان في حضرته من النصارى، وبيَّن لهم تركهم لدين المسيح الصحيح، واتباعهم لأهوائهم؛ فعبدوا رسولهم، وقالوا الزور، واتبعوا الشهوات، وتفرقوا على فرق ثلاث؛ بين من يقول إن الله ثالث ثلاثة، ومن يقول إن الله هو المسيح وابنه، ومن يقول إن الله هو المسيح. مع أن المسيح رسول الله مُبشِّرٌ بالنبي محمد (ρ). والغريب في نص المجادلة أن زعيم الفرسان كان يستدل بآيات من القرآن الكريم.

تصل الرسالة إلى بابا روما. وبحسب السياق التاريخي لرواية القيسي[45] هو الطوباوي بنديكت الحادي عشر(Blessed Benedict XI) ، فيقرأ الكتاب ويُعْلِم به خاصَّته، ثم يضعه في تابوته ليكون ضمن أسرار البابوية. لكن الأمر لم يبق قيد الكتمان بعد وفاة البابا سنة 1304م؛ حيث يأتي ملك فرنسا وهو (فيليب الرابع الملقب بالوسيم) ليجد الرسالة في ودائع البابا، فيقرا ما فيها من خطاب فرسان المعبد، فيشتطُّ غضبه مما أُخفي عنه، ثم يأمر بإخراج هؤلاء الإفْرَارِيِّين واضطهادهم؛ لئلا يكونوا

---

[43] ينظر: القيسي، مفتاح الدين، 11و.

[44] جاك دي موليه (Jacques de Molay): آخر قادة فرسان الهيكل وأساتذتها العظام بين (1295_1314)م، قام بجولات واسعة في أوروبا من أجل الدعاية لفرسان الهيكل، وتحريض البابا وملوك أوروبا على شن حملة صليبية جديدة لاستعادة الأرض المقدسة، في 13 أكتوبر 1307م، أصدر الملك فيليب الرابع أمرا بالقبض عليه ووجهت له تهم عديدة... في عام1314م تم إحراق الزعيمين الأعلى شأناً لدى لفرسان الهيكل؛ وهما جاك دي مولاي وجيفري شارناي، تم إحراقهم وهم أحياء كمهرطقين، والفرسان العاديون الذين اعترفوا وأعلنوا توبتهم تلقوا أحكاماً بالسجن ثم سُمح لهم بالانضمام إلى الجماعات الدينية الأخرى. (بهاء الأمير، اليهود والحركات السرية 34).بتصرف

[45] ينظر: القيسي، مفتاح الدين، 11و_12و.

عونا للمسلمين إذا ما علموا أنهم على دينهم. بعد ذلك يبعث برسالة عاجلة إلى الممالك النصرانية في إسبانيا، ويحضهم على ضرورة إخراج الإفْرَارِيِّين واليهود والمسلمين من جميع البلاد المسيحية. ويبدأ باضطهاد وتعذيب فرسان المعبد وطرد اليهود من فرنسا، وكان ذلك سنة 1306م في فترة بابويَّة كليمنت الخامس (Clément V) (1305-1314)م.[46]

إن المعلومات التي ذُكرت في كتاب مفتاح الدين حول فرسان المعبد ليست من نسج خيال المؤلف، فالأحداث التي تحدث عنها موثقة في مصادر التاريخ الأوربي، بداية من نشأة المجموعة وثرائها إلى تصادمها مع الكنيسة الكاثوليكية واضطهادها بداية من فرنسا على يد ملكها فيليب الرابع. الشيء الذي يصعب التأكيد عليه هو أن فرسان المعبد كانوا حقا على عقيدة الإسلام. خاصة أنهم كانوا اليد العليا أثناء الحروب الصليبية على البلاد الإسلامية، ولهم الفضل في بقاءِ مدينة القُدس في يد الصليبيِّين، واستمرار الحيويَّة في الجيوش الصليبيَّة، إلا إذا كان الأمر متعلقا بجماعة خاصة منهم، أو ربما يتعلق الأمر بآخر قادتها جاك دي مولاي.

لكن هناك أدلة تثبت أن فرسان المعبد لم يكونوا مسيحيين بالمعنى الذي كان سائدا في القرون الوسطى، ويكفي أن أشير إلى تهم أُلحقت بهذه الجماعة أثناء محاكمتهم، أو اعترفوا بها تحت الضغط، مثل الهرطقة والارتداد، والخيانة مع المسلمين، وإنكار المسيح وعبادة الشيطان، وممارسة الأعمال الشاذة. سوف أذكر على سبيل المثال اعتراف أحد المنتسبين إلى الجماعة إهانته الصليب:" أُقِرُّ أنا ليموند دي لافير _21 عامًا_ بأني بصقت على الصليب ثلاث مرات، من فمي لا من قلبي."[النص الأصلي بالفرنسية: Moi Raymond de La Fère, 21 ans, reconnais que (J'ai) craché trois fois sur la Croix, mais de bouche et pas de coeur]. مثل هذا الفعل يثبت تهمة الإلحاد على فرسان الهيكل.[47]

---

[46] المصدر نفسه ، 11و_12و.

[47] Edgeller Johnathan, Taking the Templar Habit, p. 62_66

تشير وثائق إحدى المحاكمات إلي وجود مجموعة من الأصنام التي يعبدها البعض، كما أشارت إلي وجود أوثان مثل القطط أو رأس مقطوع أو إلى شيء يسمي (Mphammet) (بهوميت)، وقد أدت وجود هذه المقتنيات إلى الاعتقاد الخاطئ أن البعض من فرسان الهيكل كانوا يمارسون السحر.[48] ولكن قام بعض الباحثين المعاصرين بشرح أن اسم (بهوميت) الذي ورد في وثائق المحكمة، ما هو إلا خطأ في النطق بالفرنسية لأسم محمد! (Mphammet).[49]

يرى بعض الباحثين أن وجود مسلمين ضمن جمعية فرسان المعبد أمر مؤكد، وهو نوع من الإسلام التَّستري الذي كان يمارسه بعض العبيد المسلمين المنتمين إلى فرسان المعبد، وذلك مخافة من الاضطهاد الذي كانوا يواجهونه من قبل الكنيسة المسيحية خاصة. إن آثارا مثل تلك الطرق الاعتقادية الإسلامية الخفية نجدها مثلا في ملف محاكمة من بداية القرن الرابع عشر ضد فرسان الهيكل في الدولة البابوية؛ فالمستجوَب غوالتيريوس (Gualterius) أحد فرسان الهيكل شهد أن زميله ألبرتوس (Albertus) بعد انتمائه للطريقة، دعاه _شريطة عدم إفشاء السر_ أن يجحد الاعتقاد بالمسيح. وعلى سؤاله: لكن بماذا سأؤمن إذن؟ أجابه ألبرتوس قائلا: بذلك الإله الأكبر الوحيد الذي يعبده المسلمون.[50]

الغريب في قضية فرسان المعبد _إلى جانب ما ذكره القيسي_. أن قائدهم الأعلى جاك دي مولاي والذي أُدين بالهرطقة والردة، وصدر في حقه حكم الإعدام حرقا في 18 مارس 1314م. يقال أنه صاح من بين النيران بأنه سيواجه الملك فيليب والبابا كليمنت قريبًا أمام الرب. ودونت كلماته الأصلية على البرشمان: "الله يعلم الخاطئين والعصاة، ولن تلبث النكبات حتى تحل على من حكموا علينا بالموت."[51]

---

[48] Anello Frank, The Knights Templars, p 208_207.

[49] Malcolm Barber, Trial of the Templar, p 62.

[50] Anne Gilmour-Bryson, The trial of the Templars in the papal state and the Abruzzi, p255.

[51] Stéphane Ingrand, Le Procès des templiers, p134.

خاتمة:

إن نتاج المدجنين في أمس الحاجة إلى الدراسة والبحث والتدقيق، من أجل سبر أغوار تلك الفئة شبه المنسية من المسلمين، وإبراز معاناتهم وصمودهم من أجل الحفاظ على معتقدهم في أحلك الظروف وأحرجها، ومعرفة أساليب البقاء التي اهتدت إليها بداية من اختراع لغتها السرية (الخِمْيَادُو) التي منعتها من الانصهار السريع في المجتمعات النصرانية، كذلك يفيدنا معرفة تاريخ تلك الفئة في التأسيس لتاريخ الموريسكيين الذين كانت ظروفهم أقسى من أسلافهم المدجنين، حيث بدأ اضطهادهم من طرف محاكم التفتيش بالاستجوابات والتعذيب والحرق، ومن حالفه الحظ منهم في الحياة تعرض للتنصير القسري أو الطرد خلال الفترة الممتدة بين 1610م و 1614م.

قائمة المصادر والمراجع:

- أسنى المتاجر في بيان من غلب على وطنه النصارى ولم يهاجر، أبي العباس أحمد بن يحي الونشريسي (914)هـ، تحقيق أحمد عبد الكريم نجيب، دار نجيب، القاهرة، 1426هـ.
- انبعاث الإسلام في الأندلس، علي المنتصر الكتاني، دار الكتب العلمية، لبنان، ط1، 2005م.
- تقريب التهذيب، أحمد بن علي العسقلاني (852)هـ، تحقيق شاغف الباكستاني، دار العاصمة للنشر.
- تهذيب التهذيب، أحمد بن علي العسقلاني (852)هـ، دائرة المعارف النظامية الهند، ط1، 1325هـ.
- تهذيب الكمال في أسماء الرجال، جمال الدين أبو الحجاج يوسف المزي (742)هـ،
- دولة الإسلام في الأندلس، محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط4، 1417هـ، 1997م.
- الردة والفتوح، سيف بن عمر التميمي، تحقيق السامرائي، دار أمية للطباعة، الرياض. ط2، 1997م.
- شتات أهل الأندلس، مرثيديس غارثيا أرينال، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ط1، 2006م.
- الفهرست، أبو الفرج محمد بن اسحق (384)هـ، تحقيق رضا تجدد، طهران، 1981م.
- قاموس المحيط، مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزبادي (817) هـ، تحقيق مكتبة تحقيق التراث بمؤسسة الرسالة ، بيروت لبنان، ط8، 2005م.

- لسان العرب، محمد بن مكرم بن علي أبو الفضل جمال الدين ابن منظور (711)هـ، تحقيق عبد الله علي الكبير، محمد أحمد حسب الله، هاشم الشاذلي، دار المعارف، القاهرة

- معجم البلدان، أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي ، دار صادر، بيروت، 1397هـ، 1977م.

- المسلمون المدجنون في الأندلس، حسن يوسف دويدار، مطبعة الحسين الإسلامية، القاهرة، ط1، 1414هـ، 1993م.

- مفتاح الدين والمجادلة، محمد القيسي، مخطوط المكتبة الوطنية الجزائرية، رقم: (MSS1557).

- ميزان الاعتدال في نقد الرجال، الذهبي، تحقيق محمد علي البجاوي، دار المعرفة بيروت، لبنان.

- اليهود والحركات السرية في الحروب الصليبية، بهاء الأمير، مكتبة مدبولي، القاهرة، 2012م.

المجلات والدوريات:

_الأسر في رحلة مغربية مورسكية لمجهول من القرن الهجري التاسع، فريدة بنعزوز، جامعة عبد المالك السعدي، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، تطوان، 2009م.

_قواعد المناظرة وأخلاقياتها من خلال مجادلة محمد القيسي ومحمد الأنصاري للنصارى بالأندلس، محمد عبد الواحد العسري مجلة التاريخ العربي، عدد 15، صيف 2000م.

المصادر الأجنبية:

-Taking the Templar Habit: Rule, Initiation Ritual, and the Accusations against the Order, Edgeller Johnathan, Texas Tech University,2010.

-The Polemical Works of Muhamm Al Qaysi (Fl. 1309) and their Circulation in Arbic and Aljamiado among the Mudejars in the Fourteenth Century, Van Koningsveld and G. A. Weigers, Al-Qantara, 15, 1994.

-The Knights Templars: God's Warriors, the Devil's Bankers. anello Frank, Taylor Trade Publishing,2003.

-The trial of the templars, Malcolm Barber, Cambridge University Press, 7sept 2006.